



دور زراعة الكروم في توسيع حركة الاستيطان

بمنطقة سيدي بلعباس 1870-1945

The Role of Viticulture in Expanding the Settlement Movement In the Sidi Bel Abbes Région 1870-1945.

د/ مصطفى حجازي*

جامعة تلمسان / الجزائر.

hadjazi.histoire@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ المراجعة: 2024/05/18

تاريخ الإرسال: 2024/05/08

الملخص:

يعد الاستيطان أداة خطيرة في التوجهات السياسية الاستعمارية الفرنسية، التي ترمي إلى تثبيت العنصر الأوروبي على أرض الجزائر، وتسخير كل الإمكانيات اللازمة للاستقرار فيها، ومحاولة السيطرة على الجزائريين. اعتمد الاستعمار على الآلة العسكرية في تحطيم البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري والقضاء على الأسس المادية التي تقوم عليها الملكية الجماعية للأرض.

إن مصادرة أراضي قبائل بني عامر وتحويل معظمها إلى زراعة الكروم بمنطقة سيدي بلعباس تعكس بوضوح السياسة الزراعية المتبعة من طرف الإدارة الاستعمارية من أجل تكريس سياسة الاستيطان الأوروبي بالمنطقة وتوسيعها وتحقيق تراكم رأسمال خاص لصالح المعمرين حيث نتج على هذه السياسة الخطيرة، انعكاسات سلبية على الوضع الاقتصادي والاجتماعي، جعل مختلف شرائح المجتمع الجزائري

* د/ مصطفى حجازي / الجزائر

ترفض هذه السياسة من خلال مطالبيها وبرامجها المختلفة ، و أصبحت الأرض مصدر الصراع القائم طوال فترة الاحتلال بين القوى الوطنية و الإدارة الاستعمارية .
الكلمات المفتاحية: الاستعمار؛ سيدي بلعباس ؛ الاستيطان؛ قبائل بني عامر ؛ زراعة الكروم؛ العنصر الأوروبي.

Abstract:

Settlement is considered a dangerous tool in the French colonial political orientations, which aim to establish the European element in the land of Algeria, harness all the necessary capabilities to settle there, and attempt to control the Algerians. Colonial is relied on the military machine to destroy the economic and social structure of Algerian society and eliminate the material foundations on which collective ownership of land was based.

The confiscation of the lands of the Beni Amer tribes and the conversion of most of them to vine cultivation in the Sidi Bel Abbes region clearly reflects the agricultural policy followed by the colonial administration in order to perpetuate and expand the European settlement policy in the region and achieve the accumulation of special capital for the benefit of the colonizers, as this dangerous policy resulted in negative repercussions on the economic and social situation made the various segments of Algerian society reject this policy through the irvarious demands and programs, and the land became the source of the conflict that existed throughout the occupation period between the national forces and the colonial administration.

Keywords: colonialism; Sidi Bel Abbes; settlement; Beni Amer tribes; viticulture; Europeanelement.

- مقدمة :

تهتم البحوث التاريخية بدراسة التاريخ المحلي لما له من أهمية في مجال البحث في التاريخ لقيمته العلمية، خاصة بعض المدن التي كان حضورها التاريخي قوي في الفترة الاستعمارية ومدى مساهمتها في المسار التاريخي الشامل، لأن دراسة تاريخ الجزائر عموما ينطلق من أهمية الدراسات المحلية.

لقد اختيرت منطقة سيدي بلعباس لتكون حقلا لتجربة نموذجية أرادها الاستعمار مثالا لانتصار له في أرض الجزائر ، فنجاحها في سهل مكرة هو بمثابة نجاح فرنسا المتحضرة كما كانت تدعيه الكتابات الفرنسية الرسمية، التي كانت بعيدة كل البعد عن الحقائق التاريخية الموضوعية حاملة في طياتها أفكارا عقائدية و عنصرية تمجد كل ما قامت به فرنسا في الجزائر ، نذكر في هذا الصدد كتاب "ليون باستيد" BelAbbes et son arrondissement الذي صدر في 1880 يتناول صاحبه فكرة نجاح الاستيطان في سهل مكرة. ثانيا "ليون عدو" : La ville de sidi BelAbbes : Histoires, Legendes, Anecdotes نشر في 1927 و اعتبر الاستعمار أداة تقدم و ازدهار في المنطقة .، وغيرها من الدراسات و التي تميزت بالذاتية في تحليلها للأحداث التاريخية و اعتبرت الاستعمار عملا مشروعا ساعد المنطقة في تطورها دون الخوض في نتائج الاستيطان الاقتصادية و الاجتماعية على قبائل المنطقة.

إن تاريخ منطقة سيدي بلعباس جزء لا يتجزأ من تاريخ الجزائر العام فهو يعكس معاناة الشعب الجزائري و نضاله الذي اتخذ أشكالا مختلفة ضد الوجود الاستعماري في الجزائر، فمصادرة أراضي قبائل بني عامر لصالح المعمرين و تحويل معظمها إلى زراعة الكروم تعكس بوضوح السياسة الزراعية المتبعة من طرف الإدارة الاستعمارية لتكريس السياسة الاستيطانية و توسيعها و ما ترتب عنه من نتائج على سكان المنطقة ، سنحاول من خلال هذه الدراسة معرفة الاستراتيجية التي تحتلها منطقة سيدي بلعباس في السياسة الاستيطانية و دور زراعة الكروم في توسيع حركة الاستيطان و نتائجها الاقتصادية و الاجتماعية.

1- تأسيس مدينة سيدي بلعباس وضواحيها:

منذ مجيء الجنرال "بيجو" Bugeaud سنة 1840 إلى الجزائر (أنظر التعليق رقم:1)، دخل الاستعمار فترة جديدة، فترة الاستثمار الاستعماري، فقد أدى القرار الحكومي الصادر في 18 أفريل 1841م إلى تخصيص نظام التنازلات المجانية، بشرط استثمارها و السكن بها ، أو تثبيت عائلة أخرى في مكانه. ابتداء من سنة 1841م بدأ الاستعمار في سياسة الاستيطان بمنطقة الغرب (أنظر التعليق رقم: 2) ونفس العملية بدأت تنتشر في الشرق ابتداء من سنة 1844م (أنظر التعليق رقم:3). إن توسع الغزو

الاستعماري بمقاطعة وهران، معسكر ثم تلمسان، شكل حدودا أخرى للاحتلال أي نقاط أخرى للدعم و التموين للوحدات العسكرية الموجودة في سبدو، فرنده، تيارت، و الولي الصالح سيدي بلعباس، الذي سوف يمنح اسمه لمدينة جديدة تخيم فيها القوات الاستعمارية ليس بعيدا عن قبة سيدي بلعباس بالقرب من تعرجات مكرة المتحول. (Pierre Dufour, 2002: 52)

تعتبر حملة المارشال "كلوزال" Clauzel Bertrand (1835-1837) سنة 1835م، أول حملة في منطقة بني عامر فقد سيطرت قواته على معسكر عاصمة الأمير عبد القادر، ثم تلمسان، لكنها لم تستطع أن تخضع الأمير عبد القادر وقواته، مما أرغمها على توقيع معاهدة تافنة في 30 ماي 1837 التي أهانت الاستعمار كثيرا، والتي لم تشرف لا حكومة "لويس فيليب" Louis Philippe ولا "بيجو". أنشأت هيئة الأركان الفرنسية في هذه الفترة في حدود التل، والهضاب العليا، نقاط دعم وتموين للجيش تسمى مراكز التخزين Postes Magazins، فرنده، تيارت والضاية. أما المسار بين وهران والضاية، فيحتوي على عدة محطات، أهمها واحدة ضرورية قرب الولي الصالح سيد بلعباس الذي يقع في أعلى تلة على المكرة في أرض قبيلة العمارنة (فرقة من قبيلة أولاد إبراهيم)، حيث تقرر وضع هذه النقطة مركزا دائما محاط بحصون من تراب، ومهام القوات العسكرية به حراسة قبائل بني عامر في المنطقة. في 12 جوان 1843 م قام الاحتلال بخطوة أخرى في المنطقة، فحول هذه النقطة المحصنة إلى مركز عسكري، ووصل الجنرال "بيدو" Bedeau (1838-1847) إلى عين المكان وبدأ الأشغال في الضفة اليمنى لواد مكرة، (37 et 38: Leon Adoue, 1927) وأصبح المعسكر يسمى بسيدي بلعباس (أنظر التعليق رقم: 4).

تكون حول هذا المركز العسكري مجمع سكاني صغير من عشرات المنازل، و أول من استقر في هذه المنطقة هم جنود اللفياف الأجنبي و الصيادون. كان رد فعل قبائل المنطقة عنيف إثر تواجد الجيش الفرنسي، حيث انتقل إلى الهجوم العسكري المسلح و تعرض حصن سيدي بلعباس إلى إنذارين من الجيش الفرنسي في سنة 1843 م، حيث حاول الأمير النزول في سهل مكرة و استمالة القبائل الموجودة، فاصطدمت قواته بقوات العقيد "جيرى" Gery في أوت 1843 م، ثم مع الرائد "برال" Barral في أكتوبر

1843م. أما الإنذار الثاني الذي تعرض له الحصن، هو هجوم أولاد ابراهيم في 30 جانفي 1845م. (Leon Adoue, 1927: 39et 40)

قام الجنرال "لاموريسيار" Lamoricière (1830-1848) قائد منطقة وهران بكتابة تقرير حول أسباب اهتمامه بالمنطقة التي غادرتها قبيلة بني عامر، التي تقوم بتسهيل الاتصال بمعسكر في الشرق، وتلمسان في الغرب، مع حماية المراكز الاستعمارية، و التحكم في المنطقة الشاسعة لبني عامر الغنية بثرواتها. كما اتخذ الماريشال "بيجو" قرارا يعتبر المناطق التي غادرتها قبيلة بني عامر مناطق تابعة للدولة .. (Leon Adoue, 1927: 44)

في غياب العمارة سكان المدينة الأصليين، و تطور الأحداث لصالح الفرنسيين، سارع الاستعمار لإقامة المدينة الجديدة بأمر ملكي صادر في سنة 1847م، و ذلك بناء على تقارير "لاموريسيار" و "بيجو" للتحكم في طرق المواصلات بين المناطق الغربية. فحول هذه الحامية العسكرية إلى مركز استيطاني، و تشكلت لجنة خاصة برئاسة النقيب "برودون" Prudon (مسئول الهندسة بسيدي بلعباس) مكلفة بتعيين النقاط الهامة، لإنشاء مركز سكاني مدني. (أنظر التعليق رقم: 5)

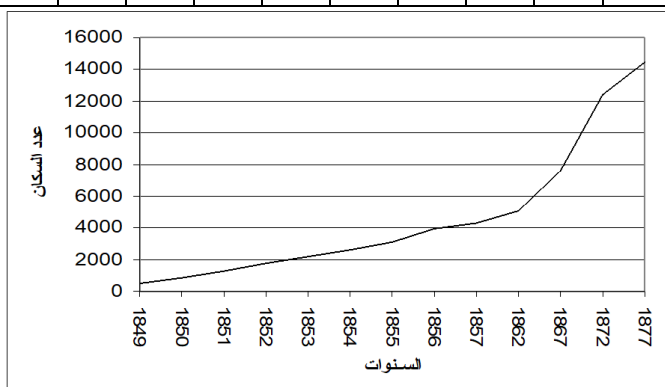
رأت هذه اللجنة ضرورة إنشاء مراكز سكانية حول سيدي بلعباس فقدم "برودون" مشروع الاستيطان. الجدول التالي يوضح أهم المراكز الاستيطانية و عدد العائلات التي يحتويها كل مركز و بعض مساحات الأراضي المغتصبة:

المركز	عدد العائلات	مساحات المصادرة
سيدي لحسن	100	2041 هـ (1200 هـ من النوع الجيد)
روشي	-	400 هـ
تسالة	65	-
سيدي خالد	-	1256 هـ (60 هـ مسقية)
مولاي عبد القادر	-	500 هـ
سيدي إبراهيم	100	1558 هـ (60 هـ مسقية)
سيدي حمادوش	100	2221 هـ
الضاية	-	662 هـ
فرودة	31	1013 هـ
المجموع	478	9651 هكتار

أهم المراكز الاستيطانية منطقة سيدي بلعباس
 المصدر: 50: Léon Bastide, 1880

أقيمت هذه المراكز الاستيطانية على أجود الأراضي، وأصبحت مناطق للتوسع الاستيطاني في سهل مكره من خلال موجات سكانية متلاحقة كما سمح إتمام الأشغال العمومية للسكان الأوروبيين، بالتمركز شيئا فشيئا في المنطقة وحسب الإحصائيات التالية نلاحظ أن عدد السكان الأوروبيين في ارتفاع مستمر: (Léon Bastide, 1881:7)

السنة	عدد السكان
1849	516
1850	855
1851	1234
1852	1728
1853	2177
1854	2585
1855	3315
1856	3968
1857	4334
1862	5101
1867	7588
1872	12417
1877	14456

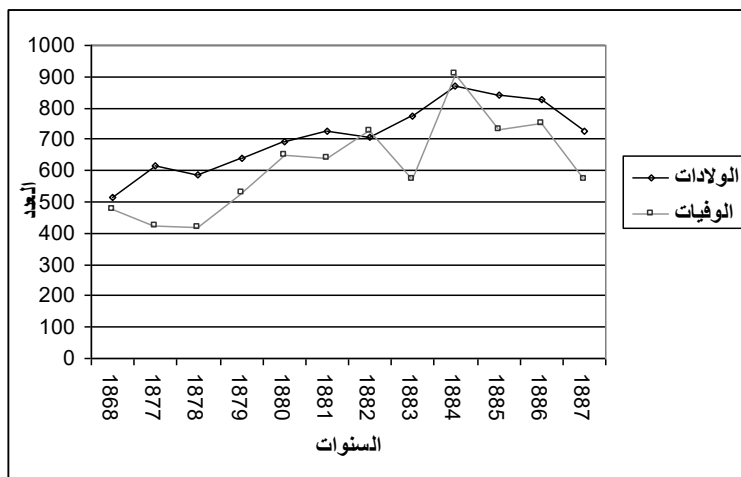


تطور عدد السكان الأوروبيين

تماشيا مع هذه السياسة، شهدت منطقة سيدي بلعباس خلال هذه الفترة حركة استيطانية واسعة نتج عنها توطين عدد كبير من الأوروبيين، وبذلك وصل عددهم في المنطقة سنة 1877م إلى حوالي 14456 منهم 4343 فرنسي، و9686 إسباني. (Tabet Ainad,1999 :110)

عرف هذان العنصران (الفرنسي والإسباني) نموا بارزا لسببين: المناخ الجيد أولا والرفاهية ثانيا وأحسن دليل على ذلك ارتفاع نسب المواليد عن الوفيات والجدول التالي يوضح ذلك: (A.F des sciences,1888 :239)

السنة	1868	1877	1878	1879	1880	1881	1882	1883	1884	1885	1886	1887
الولادات	514	615	586	639	690	727	708	775	869	840	826	724
الوفيات	476	422	416	531	649	638	724	753	909	730	750	574



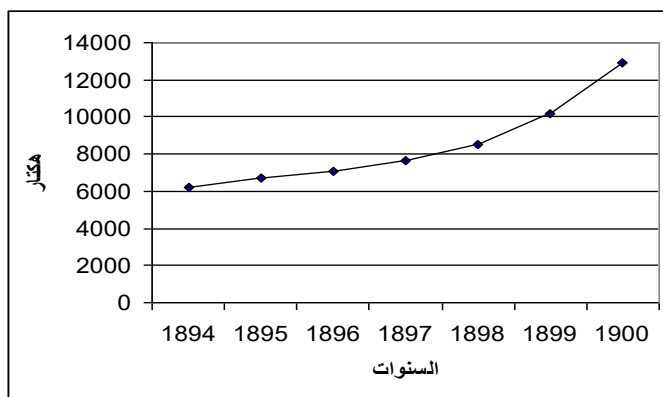
منحنى بياني لتطور الولادات والوفيات

ارتفع عدد المراكز الاستيطانية في المنطقة، حيث أسس 14 مركزاً في العشرية بين 1870م-1880م (من 54 في الغرب الجزائري)، أي تقريباً مركزين في السنة، وهذا يعني أن تأسيس أي مركز أو توسيعه هو عملية سلب لحوالي 15 إلى 40 قطعة أرض جديدة تمنح للمستوطنين وبالتالي مئات الهكتارات تختصب من الأهالي بالقوة.

استمرت الجمهورية الثالثة (1870-1940) في تدعيم الاستيطان في منطقة سيدي بلعباس، خاصة ما بين سنتي 1881 م و1900 م، فطالب المعمرون بإعانات مالية للموجة الجديدة من المهاجرين إلى المنطقة بعد ضياع ثرواتهم بفرنسا إثر الأزمة التي أصابت زراعة الكروم بسبب مرض "الفيلوكسيرا"، واتجه ذوي الإمكانيات المحدودة إلى زراعة الحبوب. (Ch.R. Ageron, 1994 : 87 et 89)

بعد الاستفادة من القروض شرعوا في زراعة الكروم وتوسع هذا المحصول شيئاً فشيئاً في المنطقة والجدول التالي يبرز تطور مساحة الكروم من 1894 إلى 1900 ذلك: (L.Isman, 1906 : 09)

السنة	1894	1895	1896	1897	1898	1899	1900
عدد الهكتارات	6203	6680	7042	7633	8543	10171	12902



تطور مساحة الكروم في سيدي بلعباس

المصدر: (L.Isman, 1906 :09)

توازيا مع الهجرات المتتالية خاصة من الألزاس واللورين، تأسست مراكز استيطانية جديدة (رأس الماء Bedeau 1884م، حاسي زهانة Tassin 1889م، مزاورو Rachambeau 1899م وغيرها..). كما شرعت السلطات الاستعمارية في إصدار القوانين المتعلقة بالعقار الفلاحي لتواصل سياسة التعمير الرسمي بسيدي بلعباس. والجدول التالي يوضح ذلك:

السنة	المركز	المساحة	عدد الهكتارات	عدد المعمارين
1899	بوشبكة	450	12	53
	لمطار	584	18	72
	بقايد بلعربي	1403	30	142
	طابية	680	19	96
	الضاية	584	14	46
1900	حاسي دحو	1403	12	48
	زرزولة	692	17	72

الجدول يبرز سياسة التعمير الرسمي بسيدي بلعباس 1899-1900

المصدر: Victor Dangles, 1904 :311

في ظل هذه التطورات الحاصلة في المنطقة والتي استفاد منها المستوطنون كثيرا خاصة من الناحية المادية، بدأ الكولون يفكرون في الاستقلال الذاتي للجزائر وإقامة حكومة خاصة بهم بعيدا عن ضغوطات الحكومة المركزية في باريس.

2- زراعة الكروم وتوسيع الاستيطان في منطقة سيدي بلعباس:

نشطت حركة الاستيطان الأوروبي نشاطا واسعا ومكثفا بالجزائر ابتداء من 1870م-1871م، واتجهت الإدارة الاستعمارية إلى غزو أرياف الجزائر، والتكثيف من توطين العنصر الأوروبي بها مع منح الأراضي مجانا. فقد تمكنت ما بين 1877م-1899م من الاستيلاء على 957 ألف هكتار بصفة مجانية كانت ملكا لأكثر من 224 قبيلة، وتم تسليم 120.097 هكتار إلى مهاجرين أوروبيين فيما بين 1891م - 1900م، وبذلك وصل مجموع ما سلم للمهاجرين خلال 30 سنة، 687 ألف هكتار أي ما بين 1871 - 1900 م، كما ارتفع عدد المستوطنين الأوروبيين في الأرياف الجزائرية من 119 ألف شخص عام 1871م إلى 200 ألف عام 1900م، واعتبر العنصر الفرنسي الفلاحة مشروعا وليس وسيلة عيش، لأنه كان يتألف من أشخاص ذوي سيرة سيئة هدفهم الحصول على الثروات وليس الاستقرار وخدمة الأرض والإنتاج (بوعزيز يحي، 1983:36).

امتلكت منطقة سيدي بلعباس ملكيات واسعة، وزعت على العائلات الكبرى، وعليه فإحصائيات سنة 1937م تمنحنا توضيحا عن مساحة ملكيات المنطقة وتوزيعها بالنسبة للأوروبيين والأهالي:

الملكيات	الأوروبيين		الأهالي	
	العدد	متوسطة المساحة	العدد	متوسطة المساحة
أقل من 10 هكتار	195	3	3017	8
من 10 إلى 50 هكتار	253	32	1275	34
من 50 إلى 100 هكتار	287	85	228	76
100 إلى 500 هكتار	617	243	46	222
500 إلى 1000 هكتار	63	698	5	584
أكثر من 1000 هكتار	21	1159	-	-
المجموع	1436	-	4571	-

مساحة ملكيات المنطقة وتوزيعها بالنسبة للأوروبيين والأهالي

المصدر: 58: Georges Reutt, 1949

من خلال الجدول نلاحظ تطور تجزئة الملكيات عند السكان المحليين، مقارنة بملكيات الأوروبيين، فنجد على سبيل المثال عدد الملكيات عند السكان المحليين الأقل من 10 هكتار تقدر بـ 3017 مقابل 195 عند الأوروبيين. إلا أن وضعية الشيوع التي

يعيشها الأهالي تخفي هذه الظاهرة فتحفظ المستثمرات بمساحتها وعدد الملاك يرتفع من جيل إلى آخر. أما فيما يخص الأوروبيين فإحصائيات سنة 1947م حول عدد الملكيات الأكثر من 10 هكتار تبرز لنا تطور مساحة الملكيات الأوروبية في مقاطعة سيدي بلعباس من سنة 1937م إلى سنة 1947م:

الملكيات	1937	1947
10 هـ إلى 50 هكتار	195	226
50 إلى 100 هكتار	253	228
100 إلى 500 هكتار	617	610
500 إلى 1000 هكتار	63	70
أكثر من 1000 هكتار	21	13

تطور مساحة الملكيات الأوروبية في مقاطعة سيدي بلعباس من سنة 1937م إلى سنة 1947م

المصدر: Tabet Ainad, 1999: 87 et 88

حسب الجدول فإن العدد الإجمالي للمستثمرات لم يتغير من 1937م إلى 1947م ومعظم الملكيات الواسعة سيطر عليها الملاك الأوروبيين.

أدت أزمة الكروم في فرنسا ابتداء من سنة 1875م إلى توسيعها في الجزائر بصفة عامة وفي منطقة سيدي بلعباس بصفة خاصة. بعد خمسين سنة سوف يحتكر ستة مستوطنين بالمنطقة 1412 هكتار من الكروم من مجموع 2710 هكتار مزروعة بالمنطقة، أي أكثر من 50% و ينتجون 52800 هكل من مجموع 107210 هكل، أما المردود فهو 40 هكل في الهكتار. (Tabet Ainad, 1999: 87 et 88)

الجدول التالي يوزع مساحة زراعة الكروم وإنتاجها على المستوطنين الستة سنة

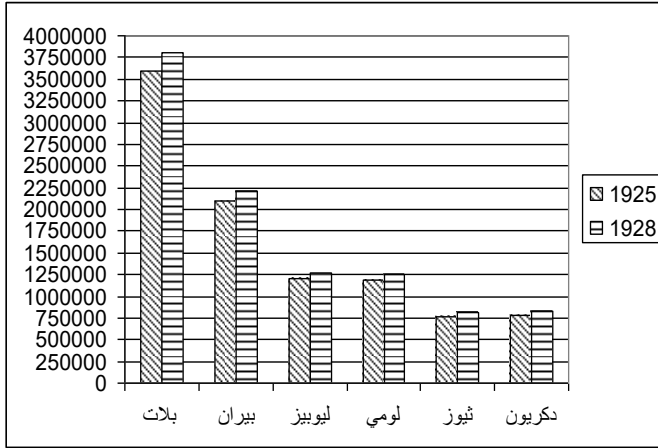
1925م:

المستوطن	المساحة	الإنتاج / هكل
بلات	550 هكتار	19700
بيران	250	11500
ليوبي	207	6600
لومي	160	6500
ثيوس	130	4200
كريون	115	4300
المجموع	1412 هكتار	52800 هكل

مساحة زراعة الكروم وإنتاجها على المستوطنين الستة سنة 1925 م:

جلب الهكتار الواحد من الكروم إبتداء من سنة 1880 م حقق الهكتار الواحد أرباحا قدرت 4000 فرنك مقابل 300 فرنك للحبوب، و من ثم فإمكانية تكديس رأس المال مضروبة في إحدى عشرة مرة بالنسبة لمزاعي الكروم. أما الصادرات نحو فرنسا فانتقلت من 100.000 هكل في 1870 م إلى أكثر من 12.5 مليون هكل في 1888 م أي مضروبة في 125 مرة بعد 18 سنة. في سنة 1880 م قدر سعر 100 هكتار من الكروم 137000 فرنك، و ارتفع إلى 200.000 فرنك سنة 1906 م. أما هكتار من الحبوب فقد بـ 237500 فرنك في سنة 1855 م، و وصل في سنة 1906 م إلى 475000 فرنك. نلاحظ من خلال هذه المعطيات أن سعر الهكتار من الحبوب تضاعف في نصف قرن، بينما الهكتار من الكروم تضاعف أيضا، لكن في 25 سنة. ومن ثم فإن أكبر المستوطنين الرأسماليين نجدهم ضمن مزارعي الكروم ويحملون اسم "أسياد الكروم" Les seigneurs de la vigne و الجدول التالي يبرز حساب عائدا 06 أكبر مزارعي الكروم بمنطقة سيدي بلعباس: (Tabet Ainad, 1999: 89)

المستوطن	1925	1928
بلات	19700 هكل 182 فرنك = 3.585.400 فرنك	193 x ف = 3.802.100 ف
بيران	11500 هكل x 182 فرنك = 2.093300 ف	193 x ف = 2.219.500 ف
ليوبيز	6600 هكل x 182 فرنك = 1.201.200 ف	193 x ف = 1.273.800 ف
لومي	6500 هكل x 182 فرنك = 1.183.000 ف	193 x ف = 1.254.500 ف
ثيوز	4200 هكل x 182 فرنك = 764.400 ف	193 x ف = 810.600 ف
دكربون	4300 هكل x 182 فرنك = 782.600 ف	193 x ف = 829.900 ف



تطور عائدات أكبر مزارعي الكروم في منطقة سيدي بلعباس

المصدر: 89: Tabet Ainad, 1999

تطور المداخل سنة بعد أخرى، جعل مزارعو الكروم يهتمون بها أكثر، فبدأوا في استبدال أشجار الكروم الكبيرة السن بأخرى صغيرة، ونمت هذه الزراعة في الجزائر في سنة 1914 م و 1915 م، فغطت 151000 هكتار، وبدأت في الزحف ضمن آلاف الهكتارات سنويا، خصوصا سنة 1922 م عندما توفرت الشروط الاستثمارية والزراعية، ففي ستة سنوات انتقلت من 180.414 هكتار إلى 2.21756 هكتار وهو أكبر رقم وصلت إليه في هذه الفترة. (Victor Démontes, 1930: 198)

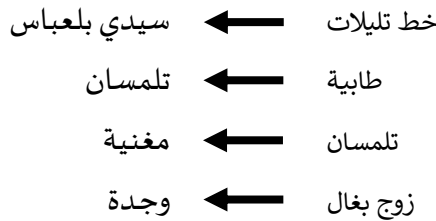
أما بمنطقة سيدي بلعباس فقد انتقلت المساحة المزروعة كروما إلى 40.000 هكتار في سنة 1934 م، نتج عنها تضخم في الإنتاج التي صادفت تحديد المزارعون بفرنسا لإنتاجهم من الكروم وتزامنت أيضا مع الأزمة الاقتصادية العالمية التي مست أوروبا. في سنة 1934، امتلكت منطقة سيدي بلعباس 10/1 من زراعة الكروم في الجزائر. (93: Tabet Ainad, 1999)

إن الازدهار الذي ظهر بسبب الكروم، أدى إلى تكوين فئة جديدة من المستوطنين الذين غيروا شروط الحياة دون أن تتراجع عندهم لذة العمل. فأصبح المستوطن يمتلك وسائل إنتاج حديثة ما أدى إلى نمو المبادرات، وارتفاع الادخار، جعلهم يؤسسون رأس مال صغير، فاستأجروا ملكيات ثم قاموا بشرائها مستفيدين من الظروف المواتية للحرب العالمية الأولى (1914م-1918م) والحرب العالمية الثانية (1939م-1945م)، و

بقيت اليد العاملة ناقصة دائما في منطقة سيدي بلعباس و لهذا شغلت العمال الموسمين القادمين من إسبانيا، المغرب الإسباني أو المغرب الفرنسي. أما العمال المتخصصين في الكروم فاستقدموا من إسبانيا عن طريق فرق متكاملة، و بعد الحرب الأهلية الإسبانية (1936م- 1939م) توقف مجيئهم فكان على المستوطنين تكوين في المنطقة عمال متخصصين. (Georges Reutt, 1949: 44)

قامت السلطات الاستعمارية بإنشاء مدرسة الفلاحة بسيدي بلعباس في نوفمبر 1930 م ، تضمن تعليمًا مهنيًا متخصصًا، أما الطلبة المتخرجين فيمنحون شهادة، دليلا على امتلاكهم لمعارف ضرورية يصبحوا من خلالها مزارعين حقيقيين قادرين على تسيير ملكيات زراعية. (GGA, 1933: 12)

أصبحت زراعة الكروم المنتج الأساسي في المنطقة، بعد النتائج الجيدة التي حققها المستوطنون فبدأ التفكير في تسويقها فقدم المجلس البلدي لسيدي بلعباس عدة طلبات بغرض إنشاء خط السكة الحديدية، و دعم هذا المطلب المجلس العام لمقاطعة وهران، و عليه جاء مرسوم 1857م لإنشاء خط من تليلات حتى تلمسان عبر سيدي بلعباس، و تم تدشين الخط في 01 ماي 1877م، ثم تلاه خط سيدي بلعباس سعيدة لنقل الحلفاء و الحيوانات نحو ميناء وهران. فبتطور الاستيطان و ما جلبه من منافع للمستوطنين اتسعت شبكة النقل، و أصبحت ابتداء من سنة 1922م تتكون من الخطوط التالية:



في سنة 1912م بدأ إنشاء الخط بين سيدي بلعباس ومعسكر، أفتتح الشطر الأول منه (سيدي بلعباس - سفيظف) في سنة 1920م. و كان الافتتاح الكلي للخط في بداية نوفمبر 1926م، حيث انتقل الحاكم العام شخصيا "موريس فيوليت" Violette لافتتاحه رسميا. (Léon Adoue, 1927: 161)

3- نتائج الاستيطان:

كان لسياسة الاستيطان الأوروبي بالجزائر عامة ومنطقة سيدي بلعباس خاصة أثارا سلبية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي:

أ- اقتصاديا

أدى نقل الملكية من الجزائريين لصالح الأوروبيين في العديد من المناطق (عين تموشنت، معسكر و سيدي بلعباس)، إلى أزمة زراعية حقيقية، فقد حرم الملاك الحقيقيين من مواردهم و انتقلوا إلى البطالة بعد منافسة الإسبان والمغاربة لهم، وبالتالي أصبح السكان المحليين في معظم بلديات منطقة سيدي بلعباس دون ملكياتهم، خاصة منطقتي بوشبكة وتلاغ. (ch.R. Ageron, 1968: 751 et 752)

بعد عودة بني عامر من المغرب الأقصى، وجدوا أراضيهم الخصبة قد سلبت من خلال مجموعة من القوانين الرادعة التي قننت ذلك الاغتصاب. كانت قبيلة أولاد إبراهيم تمتلك 76683 هكتار قبل مغادرتها المنطقة، بعد عودتها من المنفى، أغتصب منها 46091 هكتار أي 60% من أراضيها، أما قبيلة "الحاجز" فامتلكت قبل هجرتها 40000 هكتار من الأراضي الخصبة، بعد رجوعها بقي لها 17590 هكتار لخمس دواوير بمجموع 3650 ساكن، فحصل كل ساكن على حوالي 4.8 هكتار، ثم انخفضت هذه المساحة خاصة بعد تطبيق القوانين الجديدة وزيادة عدد السكان. (Tabet Ainad, 1999: 102)

وفي إطار الاستيطان الرسمي، خسرت قبيلة العمارنة معظم أراضيها التي شيدت عليها السلطات الاستعمارية مباني رسمية في منطقة سيدي بلعباس، نفس المصير عرفته قبائل الحاجز، أولاد إبراهيم و أولاد سليمان على طول واد مكرة و ذلك بتدفق المهاجرين إلى المنطقة و محاولة إنجاح سياسة الاستيطان. (Léon Adoue, 1927: 49)

هذه الوضعية جعلت المساحة الزراعية لقبيلة العمارنة تنقلص و لا تتلاءم و حاجيات السكان، حيث أنتج المجتمع الأوربي 350000 قنطار من الحبوب أما السكان المحليين 150.000 قنطار فقط في سنة 1886م رغم ارتفاع عدد السكان و التي تشكل القاعدة الأساسية لغذائهم اليومي. (Tabet Ainad, 1999: 102)

مع التوسع الاستيطاني و استنفاد الأراضي أنشأ الاستعمار عدة دواوير أهمها دوار "سفيون" الذي جمع السكان من تلاغ ، تلموني، تسالة و الحساسنة و خصصت الإدارة الاستعمارية لهذه العملية بسيدي بلعباس في أواخر سنة 1902م ما يقدر بـ 20 ألف هكتار (Georges Reutt,1949: 40)

في سنة 1889م شيدت السلطات الاستعمارية قرية "بضرايين" (35 كلم عند سيدي بلعباس) و هي القرية الوحيدة التي بنيت من أجل السكان المحليين ، حيث وصل عدد سكانها في 1896م حوالي 169 ساكن و ارتفع إلى 1191 ساكن في سنة 1935م، أي تضاعف عدد السكان سبعة مرات دون أن يتم توسيع القرية. فطالب عدد من المنتخبين وقف استئصال هذا الشعب بإجباره على التوجه نحو نظام "الإجارة" Salariat فقد صرح نائب رئيس نقابة الزراعة لوهران السيد "جيرو" Guiraud في سنة 1900م ما يلي: "أخشى من أيرلندا جديدة بسبب هذه البروليتارية دون أرض، فالملكيات الصغيرة هي الضمان الوحيد للاستقرار الاجتماعي الذي يملكه في هذا البلد". (ch.R. Ageron,1968: 847)

من جهة أخرى حقق المستوطنون فوائد كبيرة، حيث استطاع المستوطن "ليون باستيد" مضاعفة ثروته أربع مرات في نفس الفترة (30 سنة)، تمثلت في فائدة سنوية بلغت أكثر من 2000 فرنك لمزرعة واحدة Le Clos Jerome المعروفة عند سكان سيدي بلعباس باسم Djenane Bastide

و يمكن أن نعمم هذا المثال على كل المستوطنين في المنطقة عندما نعرف أن قطعة أرض من 08 هكتارات يمكن أن تكتسب 900 فرنك ما يؤدي إلى تكوين المستوطنين لممتلكات عقارية واسعة في المقابل تزيد هذه السياسة الأهالي إفقارا. (Tabet Ainad,1999: 104)

لم يحجب ازدهار زراعة الكروم بمنطقة سيدي بلعباس التي كان معظمها في يد المعمرين، عن مآسي الأهالي الذي تحولوا إلى عمال زراعيين، بحكم الانخفاض الكمي و النوعي للأراضي، الأمر الذي سبب أزمات خطيرة، و شجع الممارسات الربوية في تجارة المواد الفلاحية، و أدى إدخال الملكية الخاصة على أراضي العرش الجماعية و تأزم

أوضاع الجزائريين، حيث أصبحت مساحة الملكية لديهم لا تتعدى 10 هكتارات بينما يقدر الحد الأدنى الذي يحمي من المجاعة 12 هكتار .

ب- اجتماعيا

لم يصمد المجتمع الإسلامي أمام التوسع الاستيطاني فقد تم تحطيم العائلات الجزائرية الكبرى التي كانت تمثل القيادات للمجتمع روحيا و ماديا، بل حتى إداريا، اجتماعيا و سياسيا. فأصبح محروم من القيادات، و انهارت في سنة 1900م الأرستقراطية تماما، و حوربت بصلابة و عجزت عن التكيف مع الوضع الجديد ، و لم تبق سوى بعض عائلات المرابطين و بعض السلالات ذات النظام الأبوي في الجنوب. (بوعزيز يحي، 1986:97)

استولى الاستعمار على معظم الأراضي في بعض مناطق وهران وسيدي بلعباس ما أدى إلى تزايد عدد الفقراء في سنة 1900م، حيث يتحدث نقيب المحامين بوهران عن البروليتاريا في هذه المناطق ويذكر أن أحد "الدوار" يتكون من 400 عائلة يعيشون فقط من أيام عملهم أو عملية نهب في ضواحي سيدي بلعباس، ويذكر التحقيق أن في مجموع 6000 مسلم لا يجد من وسائل الحياة البسيطة إلا حوالي 500 مسلم، معظمهم تجار دجاج وبائعي حطب. (Ch.R. Ageron, 1968 :845)

ففي نواحي منطقة "ديسكارت" Descartes (ابن باديس) حاليا، وإبتداء من 02 جانفي 1900م كثرت محاولات السرقة، أهمها سرقة مخزن احد منازل السيد "بوسر" Bousser ، هذه الظاهرة التي تعددت في المنطقة تفسر بانتشار الفقر مع ارتفاع عدد العمال المغاربة و الأجانب بالمنطقة دون أن يجدوا مأوى أو لقمة عيش لهم (Echod'Oran, 1900 :N°10257).

زادت الأوضاع الاجتماعية بالمنطقة سوءا خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، عندما انخفضت كمية المواد الغذائية، فقامت السلطات الاستعمارية بتوزيع بطاقة التموين بالمنطقة ابتداء من 02 فيفري 1919م ، فمثلا ببلدية لمطار، لم يكن الفرد يحصل إلا على 400 غ من السكر بسعر 2.80 فرنك شهريا. (Echo d'Oran, 1919 :N°17166)

و رغم ارتفاع هذه الكمية ابتداء من جانفي 1920م والتي أصبحت تقدر بـ 02 كلغ بسعر 3.90 للكغ للفرد، إلا أن النقص الفادح من المواد الغذائية استمر لكل سكان المنطقة (Echod'Oran, 1920: N°17502)

وفي إطار السياسة الفرنسية غيرت الإدارة الاستعمارية كل أسماء المناطق والقرى، وعوضتها بأسماء أوروبية مسيحية، ولم تكتف بذلك، بل كونت طبقة رسمية من رجال الدين الإسلامي أكلت إليهم إدارة المساجد، ومراقبة الزوايا الحرة و رجالها، كما ألزمهم بالتعاون مع الشرطة الفرنسية ضد المسلمين، أدى ذلك إلى ضياع هويتهم و نفوذهم في أوساط سكان الجزائر (بوعزيز يحي، 1986: 45)

أدت البطالة إلى ضخامة الهجرة الريفية، التي ظهرت بأشكال مختلفة وتدفق سكان الريف نحو مناطق التصنيع والمدن، وهجرة مؤقتة إلى فرنسا ومن السهول العالية القاحلة المكتظة بالسكان إلى المناطق الغنية، أي إلى مناطق الاستيطان. (ش. ر. أجيرون، 1986: 89)

فقد شهدت منطقة سيدي بلعباس حركة عامة للسكان نحو المراكز الحضرية، حيث لم يكن انتقال الأوروبيين إلى المدينة تخليا عن الزراعة بل تخليا عن الريف، و استمرت هجرات الأهالي إلى المدينة فشكلت عمالة هامة استفاد منها الأوروبيون و مقاولااتهم.

والجدول التالي يوضح تطور عدد سكان الريف والحضر الأوروبيين والأهالي

بمنطقة سيدي بلعباس خلال أربع سنوات مختلفة (41: 1949, Georges Reutt)

السنوات	1912	1926	1936	1948		
السكان	الأوروبيين	الأهالي	الأوروبيين	الأهالي	الأوروبيين	الأهالي
سكان الريف	12726	54197	11250	51280	10800	45852
سكان الحضر	29778	9789	38750	31425	43913	38250
المجموع	42504	63986	50	82765	54713	84062

تطور عدد سكان الريف والحضر الأوروبيين والأهالي بمنطقة سيدي بلعباس

المصدر: 41: 1949, Georges Reutt

لقد جلبت مدينة سيدي بلعباس عددا كبيرا من الأجانب الذين استخدموا في المزارع خاصة الإسبان. أما عدد الأوروبيين من الحضر فقدت نسبتهم في سنة 1912م بـ70%، لتنتقل إلى 80% في سنة 1936م و تصل إلى 83.5% سنة 1948م، و عليه تراجع عددهم في الريف من 12726 شخص في 1912م إلى 9253 سنة 1948م. أما ظاهرة هجرة الأهالي إلى المدينة فقد تأخرت بسبب إنشاء الدواوير الذي أوقفها، و أبقى الفلاح في الريف لفائدة الاستيطان. في سنة 1912م بلغت نسبة الجزائريين الذين يقطنون المدينة 15% لترتفع إلى 45.5% سنة 1936م. (Ch.R. Ageron, 1968 : 60)

ونظرا لانخفاض الأجور، وبحثا عن لقمة العيش في المدينة، نلاحظ أن سكان الأهالي في سيدي بلعباس قد ارتفع 3 مرات في مدة 15 سنة أي من 9789 شخص سنة 1912م إلى 31425 شخص سنة 1926م. وعليه كانت الهجرة إلى المدينة تعبير عن مشاكل يعيشها الريف الجزائري، فكانت الطبقة الكادحة دائما وراء مصدر العيش الذي كان يضمه الريف لتنتقل وتبحث عنه في معامل وورشات الأوروبيين في المدينة.

- خاتمة:

أصبحت زراعة الكروم في مقاطعة سيدي بلعباس، ضرورة وليس خيارا للمستوطنين، بعد ما جلبت لهم رؤوس الأموال، و ضمنت لهم تكريس سياسة الاستيطان الأوروبي بالمنطقة، إلا أن انعكاساتها كانت خطيرة، حيث تقلصت المساحة الزراعية المخصصة لإنتاج الحبوب و البقول التي يعتمد عليها على السكان المحليين مما انعكس سلبا على وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، و هذا ما جعل مختلف شرائح المجتمع الجزائري، ترفض هذه السياسة الخطيرة من خلال مطالبتها و برامجها المختلفة، و أصبحت الأرض مصدر الصراع القائم طوال فترة الاحتلال بين القوى الوطنية و الاستعمارية.

التعليقات:

- التعليق 01: أهم المراكز الاستيطانية التي تأسست في عمالة العاصمة: بوفاريك 1835، دالي إبراهيم، القبة و حدود العاصمة 1835، المدينة، مليانة، 1840، شرشال بليدة، 1841، العاشور، 1842، اولاد فايت، قليعة 1842، بوغار، ثنية الحد، تنس، دويرة، مصطفى و الأغا،

بئر خادم ، شرافة ، حسين داي 1843 ، سيدي فرج ، دلس ، سطاوالي ، فوكة ، زيرلدة 1844 ، الصومعة ، 1845 ، الشقة مرادية 1846 ، العفرون ، بني مراد 1848 ، الأربعاء 1849. ينظر إلى Léon Bastide :Bel Abbes et son arrondissement. Oran. Imp.Perrier 1880.Page 18.

- التعليق 02: أهم المراكز الاستيطانية التي تأسست في عمالة وهران: مستغانم ومعسكر 1841م، تلمسان 1842م، السانية، 1844م، سيق، أرزيو، مسرغين، سيدي الشحي 1845م، مرسى الكبير، تليلات 1846م، حاسي بن عقبة، حاسي بن فرج، حاسي بونيف حاسي عامر، عين تادل، تونان 1848م، سيدي بلعباس 1849م، صاف صاف، منصور، عين الترك، بوسفر 1850م. ينظر إلى Léon Bastide :Bel Abbes et son arrondissement. Oran. Imp.Perrier 1880.Page 18 .

- التعليق 03: أهم المراكز الاستيطانية التي تأسست في عمالة قسنطينة: بجاية 1833م، قسنطينة 1837 سكيكدة 1838، عنابة 1838م، الحروث 1844م، قالمة 1845م، عين صفية 1846م، سطيف 1847م، باتنة 1848م، جيجل 1849م. ينظر إلى Léon Bastide :Bel Abbes et son arrondissement. Oran. Imp. Perrier 1880.Page 18.

- التعليق 04: من هو سيدي بلعباس؟ شريف يرجع نسبه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، غادر جده سيدي البوزيدي مكة المكرمة ليلتحق بالجزائر، سافر خلال سنوات عديدة، عبر خلالها الحجاز، مصر، ليبيا، وتونس واستقر في أفلو (جنوب الجزائر). توفي هناك وعمره 144 سنة بعدما خلف أربعة أطفال. سار أحد أبنائه المسمى مثل أبيه "سيدي علي البوزيدي" مع قافلة إلى فاس والتحق بمدرسيه بعاصمة المغرب. بعد سنوات أصبح الطالب أحد المنافسين لمعلميه، ثم التحق كمدرس بتلمسان، حتى قيل إن سلطان المغرب كان يقطع المسافات ليكون أحد مستمعيه، ويقال أيضا حسب "ليون عدو" Léon Adoue أن المنطقة التي كان يمر عليها سيدي بلعباس يعمها الأمن والسلام. بعد حياة طويلة، وفي حوالي 1780م توفي سيدي بلعباس حيث دفن على تله في قبة مكره. ينظر إلى Léon Adoue : la ville de Sidi Bel Abbes page (32-35)

- التعليق 05: تتكون اللجنة من التشكيلية التالية: -سنيوري Signorino: رئيس المكتب العربي. - كاميس Camis : مفتش. -Eichacker-Inspecteur de Colonisation-أيشارك
: جراح من اللقيف الأجنبي. -فرونسي بريجيت FrancyBregeat : سكرتير. (ينظر إلى : Léon Bastide. Op. Cit. page 25.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أجيرون شارل روبير، (1986). تاريخ الجزائر المعاصرة ، الطبعة الثانية . الجزائر : د م ح ، ترجمة عيسى عصفور.
- 2- بوعزير يحي، (1983). التسلط الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائر 1830-1954 ، الجزائر: د.م.ج.
- 3- Adoue Léon, (1927). la ville de Sidi Bel Abbes ، Histoire ، Légende ، Anecdotes.
- 4- Sidi Bel Abbes, France : Imp. René Roidot.
- 5- Ainad .Tabet Redouane, (1999) .Histoire D'Algérie . Sidi bel Abbes de la colonisation à la guerre de libération en zone 5 wilaya v. 1830-1962, Alger : ENAG édition.
- 6- Ageron R Charles ,(1968).les Algériens Musulmans et la France 1871 -1919, tome 1 : Presses universitaires Français.
- 7- Ageron R Charles ,(1968).les Algériens Musulmans et la France 1871 -1919, tome 2: Presses universitaires Français.
- 8- Ageron R Charles, (1994) . Histoire de l'Algérie contemporaine. Paris : P.U.F.
- 9- Bastide Léon, (1880) .Bel Abbes et son arrondissement. Oran : Imp. Perrier.
- 10- Bastide Léon, (1881) .Précis de L'histoire et de la géographie de Bel-Abbes et de son arrondissement .Oran : Imp. Perrier.
- 11- Demontès Victor, (1930) . L'Algérie agricole. Paris : Librairie larose.
- 12- Isman . L., (1906). Essai d'une monographie du vignoble de l'arrondissement de Sidi Bel-Abbes. Oran : Imp. Paul Payan.
- 13- Reutt Georges, (1949) .la Région agricole de Sidi Bel Abbes , Oran : imprimerie Heintz-frères.
- 14- Dufour Pierre, (2002). « Villes et Régions » .revue Historien Militaire, Mai Juin Page 52.
- 15- Dangles Victor, (1904) . « la colonisation en Oranie 1898-1904 » in B.S.G.A d'Oran .
- 16- Gouvernement Générale le de l'Algérie.(1933) : « Ecole d'agriculture de Sidi Bel Abbes». Imp. Heintz frères.



- 17- Association française pour l'avancement des sciences, (1888).
« Oran et L'Algérie en 1887 » Congrès D'Oran , Tome II. Oran :
Édition- Paul Perrier.
- 18- Echo d'Oran du 04 janvier 1900 N°10257.
- 19- Echo d'Oran du 08 février 1919 N° 17166.
- 20- Echo d'Oran du 11 janvier 1920 N°17502.